المحاضرة السابعة

دراسات جمهور ما بعد الحداثة

لقد تزامن ظهور مصطلح ما بعد الحداثة مع ما أكده أصحاب النظرية النقدية بأن مرحلة الحداثة انتهت وأصبحنا نعيش مرحلة بعد حداثية تعبر عن أزمة ألمت بالحداثة وتشكل على إثرها المجتمع ما بعد الصناعي أو الرأسمالية متعددة الجنسيات أو المجتمع الاستهلاكي أو مجتمع الإعلام أو مجتمع شبكات الاتصال العملاقة. وهذا المجتمع بملامحه الجديدة يضع فاصلا بينه وبين مجتمع ما قبل الحرب العالمية الثانية الذي كانت فيه الحداثة لا تزال قوة مؤثرة. كما انسحبت تلك التغيرات على المفاهيم الإعلامية المرتبطة بالجمهور وسلوكياته متأثرة بالأنموذج الجديد. وتستمد المفاهيم الجديدة المتعلقة بجمهور وسائل الإعلام وسلوكياته وأبحاثه ومقوماتها أساسا من الأدبيات التي أوجدتها تيارات ما بعد الحداثة ابتداء من القرن العشرين، ومن الأجواء التي خلقتها تكنولوجيات الإعلام والاتصال المستجدة في المحيط الاتصالي المتحرك

إن مفهوم ما بعد الحداثة Post-modernitsm تكثف استعماله منذ العقد الثامن للقرن العشرين، للدلالة على تشكيلة واسعة من التغيير في أنماط التفكير، مشيرا على العموم إلى التيارات النقدية للحقائق المطلقة والهويات سواء في الفلسفة والفن والموسيقى أو الهندسة المعمارية أو الأدب والشعر واللغة أو التاريخ والسياسة والثقافة، فهو يعني في هذه المجالات بالذات مواقف أيديولوجية أكثر من كونه يعبر عن حقبة زمنية في تاريخ الحضارة الإنسانية، كما يشير إليه البعد التكنولوجي.

وقد شاع استعمال مصطلح "ما بعد الحداثة" بعد دخوله أولا المجال الفلسفي سنة 1979 على يد (جون فرانسوا ليوتار Jean-François LYOTARD) الذي نشر "شرط ما بعد الحداثة La Condition Post-moderne" وهو العمل الذي نشر بالإنجليزية سنة 1984، أي أن الأدبيات الأنجلو-سكسونية بدأت تكتشف وتستعمل المفهوم في أواخر العقد الثامن من القرن الماضي.

وعلى إثر ذلك، شهدت دراسات الجمهور بدورها تطورا أسماه (مورلي MORLEY) الجيل الثالث من دراسات التلقي في سياق إعادة التفكير في جمهور وسائل الإعلام . إن هذا الجيل الجديد الذي لم ترتسم معالمه النهائية بعد ولكن يمكن ملامسته من خلال العديد من الظواهر و المفاهيم المرتبطة بها . فعلى الصعيد التكنولوجي اتسع انتشار الواب وتغلغله في جميع نواحي الحياة واجتياح العولمة الإعلامية وتعميم أنظمة الاتصال الرقمية التي غيرت جذريا علاقات التبعية بين المرسل والمتلقي . وعلى الصعيد الاقتصادي أعاد نهوض البلدان" النمور الآسيوية "في نهاية القرن الماضي والنمو الاقتصادي المذهل إمكانية محافظة شعوبها لثقافاتها وحضاراتها ومسايرة الدول المحتكرة للاقتصاد .

أما الأحداث السياسية الأكثر انعكاسا على عملية إعادة التفكير في أنماط التفاعلات الممكنة بين التدفق الإعلامي المعولم والمتلقين من مختلف الانتماءات الثقافية والعرقية والإثنية وكذا الحرب على الإرهاب التي طرحت التخلي على المبادئ التي وجدت بعد ح ع 2 مثل حقوق الإنسان بما فيها حق الإعلام وحق الاختلاف.

ولئن كانت هذه الإرهاصات لا تشكل بعد أنموذجا متمايزا، فإنها مؤشرات قوية على ظهور تيار جديد في الدراسات الإعلامية، ولاسيما دراسات الجمهور في عالم ذي حركية سريعة، يمكن أن تستقر قريبا في أنموذج يتخذ وصف ما بعد الحداثة. وحتى يمكن التعرف على إرهاصات هذه المرحلة ومؤشرات تيار الدراسات الجديد، نستعرض فيما يلي أهم المفاهيم الحديثة في مجال الجمهور المتداولة في هذه المرحلة الانتقالية من مجتمعات الحداثة إلى المجتمعات اللاحقة لما بعد الحداثة التقنية.

1. مفهوم السياق المنزلي:

تعتبر الاتجاهات الحديثة المشاهدة التلفزيونية كنشاط يومي معقد يجري في السياق المنزلي ويمارس ضمن العائلة فالتلفزيون تستقبل في سياق بالغ التعقيد والقوة، غير أن الطابع السياقي للتلقي يطرح تساؤلات حول الكيفية التي تستعمل بها التلفزة في المنزل، وحول سلطة اتحاد القرارات المتعلقة باختيار القنوات التلفزيونية والبرامج التي تشاهد في هذا الوسط الأسري.

إن مفهوم السياق المنزلي يسمح بالاهتمام أكثر بمختلف جوانب ظاهرة المشاهدة التلفزيونية التي تجري في السياق المنزلي ضمن الأسرة، فالإطار الذي تستقبل فيه الرسائل الإعلامية مع حضور أفراد العائلة داخل الوسط الأسري يطرح التساؤلات حول الكيفية التي تتحقق بها عملية الاتصال في هذا السياق المنزلي، وكيف يتم فيه إدماج التكنولوجيات المنزلية وتكيفها مع مستلزمات هذه البيئات.

حيث تسعى أبحاث التلقي الحديثة من الإجابة على هذه التساؤلات في تطوير نموذج للاتصالات المنزلية والأخذ بعين الاعتبار نشاطات الاتصال المتنوعة التي تتعايش في وضعية المشاهدة التلفزيونية مع الاستعمالات الأخرى لتكنولوجيات الإعلام والاتصال المنزلية مثل الراديو، الحاسوب، أقراص الفيديو DVD... الخ .

ويستبعد تحليل سياق المشاهدة التلفزيونية المفهوم العددي للجمهور، حيث لم يعد مجرد حصيلة عددية لأفراد الأسرة الذين يتابعون البرامج والحصص، وإنما أصبح ينظر إلى المتلقي كعضو ديناميكي فعال ممارس لنشاط اتصالي في الحياة اليومية للأسر، كما يركز تحليل السياق المنزلي على بحث الكيفية التي يتم بها إدماج التكنولوجيات حتى يصبح جزءا لا يتجزأ من الديناميكية الداخلية و تنظيم الفضاء المنزلي .

2. مفهوم التكنولوجيات المنزلية:

يتضمن هذا المفهوم مجموع المنتجات والتكنولوجيات التي تستعمل في سياق خلايا اجتماعية كوسائل اتصال جماعية وفردية، والتي تشغل حيزا منزليا في السياق الأسرية مثل آلة التسجيل، جهاز الكمبيوتر والهاتف وأجهزة الاستقبال الإذاعي والتلفزيون والفيديو خاصة منها المرتبطة بشبكة الانترنيت، وقد احتكر التلفزيون منذ ثمانينات القرن الماضي استعمال هذا المفهوم تبعا للدراسات المكثفة حول الانعكاسات الاجتماعية لهذه التقنية الجديدة وأثارها على العلاقات الاجتماعية الأسرية وعلى سلوكيات الأفراد وخاصة على سلوكيات الأطفال وعلى التحصيل الدراسي، ودور الآباء في توليف (جعلها أليفة) هذه التكنولوجيات وتطويرها لإشباع الاحتياجات والترفيه والتقنية والتعليمة لمختلف أفراد الأسرة.

وتعني التكنولوجيا الممارسات المتولدة عنها الدلالات التي تثيرها فالتكنولوجيات لا تتوفر فقط على قيمة مادية ولكنها تتضمن أيضا قيمة رمزية من خلال استعمالاتها، الأمر الذي يعطي كل الأهمية لفهم الكيفية التي يتم بها إدماجها في الحياة العائلية، وفهم الكيفية التي تؤثر بها الحياة العائلية اليومية في التكنولوجيات المنزلية.

وبهذه الصيغة تصبح دلالات التلفزيون، وبالتالي كل التكنولوجيات المنزلية تضم في نفس الوقت دلالات النصوص ودلالات التكنولوجيات وينبغي أن تفهم كخصائص مستحدثة لممارسات الجمهور.

3. الديناميكية العائلية:

أدخل هذا المنظور تعديلا هاما على مفهوم الجمهور الذي لم يعد مجرد فرد مشاهد لكنه عضو في الجماعة المشاهدة (أي المشاهدة العائلية بدلا من المشاهدة الفردية)، وبالتالي جعل الأسرة مجالا نشيطا للممارسات الاجتماعية التي تتأثر في نفس الوقت بالمحيط الاجتماعي والثقافي، و بالخصوصيات العائلية (كالعادات والتقاليد والطقوس) التي تحدد درجات انفتاحهم على التأثيرات الخارجية.

فالديناميكية العائلية يقصد بها قدرة العائلات على التحكم في هذه التكنولوجيات وإدماجها كأدوات عادية وضرورية في الممارسة اليومية للأسرة، وقدرتها على التأويل وإضفاء الرموز التي تحملها هذه التكنولوجيات، ومضامين الرسائل التي تنقلها وفقا للخصوصية الثقافية والطقوس الإثنية والدينية، كما تعني أيضا قدرة العائلات على استيعاب الرسائل الظاهرة والضمنية التي تحملها تكنولوجيات الإعلام والاتصال .

إن طرح إشكالية الديناميكية العائلية بهذه الكيفية يسمح بوضع إطار للتفكير في دراسة العلاقات الاجتماعية من خلال استعمال التكنولوجيات المنزلية الحديثة يتم في إطار العلاقات الاجتماعية ومختلف الديناميكيات الداخلية للأسرة مع اختلاف السن ، النوع، الجنس و اختلاف التأويلات و الدلالات و الرموز التي تحملها الرسائل الإعلامية و الاستجابة لمضامينها.

إذ تمكن دراسة الديناميكية العائلية من تحليل المشاهدة والاتصال الفردي في إطار العلاقات العائلية من خلال التفاعلات التي تحدث داخلها، و يسمح هذا السياق بتحديد العوامل الحاسمة في ممارسة المشاهدة من حيث السلطة، والمسؤولية والرفاهية في مكان معين وفي أوقات معينة.

وبناء مما سبق، يمكن القول أن فعل التلقي لمختلف الرسائل الإعلامية يختلف من متلق إلى آخر، ذلك أن النظريات الحديثة أكدت أن مبدأ الفروق الفردية، والتجربة والخبرة السابقة للمتلقي تلعب دورا كبيرا في إضفاء دلالات مختلفة تختلف باختلاف السياق الذي يوجد فيه المتلقي، ومن ثمة فإن لكل واحد قراءة خاصة به.